

يُخَمَّسُ السَّلْبُ وَقَالَ: هُوَ لَهُ أَجْمَعُ، وَمَضَتْ عَلَى ذَلِكَ سَنَتُهُ وَسَنَةُ الصَّدِيقِ بَعْدَهُ، وَمَا رَأَهُ عَمْرٌ اجْتِهَادٌ مِنْهُ أَدَاهُ إِلَيْهِ رَأْيُهُ.

والحديث يدل على أنه من أصل الغنيمة، فإن النبي ﷺ قضى به للقاتل، ولم ينظر في قيمته، وقدره، واعتبار خروجه من خمس الخمس، وقال مالك: هو من خمس الخمس، ويدل على أنه يستحقه من يسهم له، ومن لا يسهم له من صبي وامرأة، وعبد ومشرك، وقال الشافعي في أحد قوليهِ: لا يستحق السلب إلا من يستحق السهم، لأن السهم المجمع عليه إذا لم يستحقه العبد والصبي، والمرأة والمشرك، فالسلب أولى، والأول أصح للعموم، ولأنه جار مجرى قول الإمام: من فعل كذا وكذا، أو دل على حصن، أو جاء برأس، فله كذا مما فيه تحريض على الجهاد والسهم مستحق بالحضور، وإن لم يكن منه فعل، والسلب مستحق بالفعل، فجرى مجرى الجعالة.

## فصل

وفيه دلالة على أنه يستحق سلب جميع من قتله، وإن كثروا. وقد ذكر أبو يستحق القاتل سلب جميع من قتله وإن كثروا داود أن أبا طلحة قتل يوم حنين عشرين رجلاً، فأخذ أسلابهم<sup>(١)</sup>.

## فصل

### في غزوة الطائف

في شوال سنة ثمان، قال ابن سعد: قالوا: ولما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو إِلَى ذِي الْكَفَّيْنِ: صَنَمَ عَمْرٍو بْنِ حُمَمَةَ الدُّوسِيِّ، يَهْدِمُهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ قَوْمَهُ، وَيُؤَافِيَهُ بِالطَّائِفِ، فَخَرَجَ سَرِيعاً إِلَى قَوْمِهِ، فَهَدَمَ ذَا الْكَفَّيْنِ، وَجَعَلَ يَحُشُّ النَّارَ فِي وَجْهِهِ وَيَحْرِقُهُ وَيَقُولُ:

(١) أخرجه أبو داود (٢٧١٨) في الجهاد: باب في السلب يعطي القاتل، والدارمي في «سننه» ٢/٢٩٩ من حديث أنس، وسنده صحيح، وقال أبو داود: هذا حديث حسن.

يَا ذَا الْكَفَيْنِ لَسْتُ مِنْ عَبَادِكَ      مِيلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِيلَادِكَ  
إِنِّي حَشَشْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَ

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق<sup>(١)</sup>.

قال ابن سعد: ولما خرج رسول الله ﷺ من حنين يُريد الطائف، قدم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف قد رموا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسته، فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم، وتهيؤوا للقتال، وسار رسول الله ﷺ، فنزل قريباً من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمية شديداً، كأنه رجل جرّاد حتى أصيب ناسٌ من المسلمين بجراحة، وقُتل منهم اثنا عشر رجلاً، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يُصلي بين القبتين مدة حصار الطائف، فحاصرهم ثمانية عشر يوماً<sup>(٢)</sup>، وقال ابن إسحاق: بضعاً وعشرين ليلة.

ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول ما رمي به في الإسلام.

أول منجنيق رمي به في الإسلام

وقال ابن سعد: حدثنا قبيصة: حدثنا سفيان، عن ثور بن يزيد، عن مكحول أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً<sup>(٣)</sup>.

(١) الدبابة: آلة من آلات الحرب تصنع من خشب، وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، فيدبون بها إلى الأسوار لينفبوها، والمنجنيق: لفظه معربة وهي آلة ترمى بها الحجارة الثقيلة ونحوها لذلك الحصون وضبطوها بفتح الميم وتكسر، والميم أصلية عند سيبويه، والنون زائدة، ولذا سقطت في الجمع، قال كراع: كل كلمة فيها جيم وقاف أو جيم وكاف مثل كيلجة، فهي أعجمية.

(٢) «طبقات ابن سعد» ١٥٨/٢.

(٣) ابن سعد ١٥٩/٢، ورجاله ثقات، لكنه مرسل، وفي صحيح مسلم (١٠٥٩) (١٣٦) من حديث أنس بن مالك... ثم انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة...

قطع أعناب ثقيف

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشذخعة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابية، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سيكك الحديد مُحَمَّاة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون.

قال ابن سعد: فسألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم» فتأدى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكر، فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

رحيله ﷺ من الطائف  
دون فتحها

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: ما ترى؟ فقال: نعلب في جحر، إن أقتت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يُفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغذوا على القتال» فغذوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك، فلما ارتحلوا واستقلوا، قال: قولوا: «آييون، تائبون، عابدون لربنا حامدون»، وقيل: يا رسول الله! ادع الله على ثقيف. فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم»<sup>(١)</sup>.

(١) «طبقات ابن سعد» ١٥٩/٢، وأخرج أكثره البخاري ٣٦/٨ في المغازي: باب غزوة الطائف، ومسلم (١٧٧٨) في الجهاد والسير: باب غزوة الطائف من حديث ابن عمر، وروى مسلم (١٣٤٤) من حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة قال: «آييون تائبون عابدون لربنا حامدون صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» وقوله: «اللهم اهد ثقيفاً» =

واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف جماعةً، ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، ثم دخل منها محرماً بعمرة، فقضى عمرته، ثم رجع إلى المدينة.

عمرة الجعرانة

## فصل

قال ابن إسحاق: وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وقد ثقيف، وكان من حديثهم: أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم أتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عليّة له، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهمٌ فقتله، فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فدفنوه معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إِنَّ مَثَلَهُ فِي قَوْمِهِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ يُسَ فِي قَوْمِهِ».

وفد ثقيف

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً، كما أرسلوا عروة، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا عليه ذلك، فأبى أن يفعل وخشي

أخرجه أحمد ٣/٣٤٣، والترمذي (٣٩٣٧) من حديث جابر بن عبد الله، ورجاله ثقات، وفي مرسل ابن الزبير عند ابن أبي شيبة قال: لما حاصر النبي ﷺ الطائف، قال أصحابه: يا رسول الله ﷺ أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً».

أن يصنع به كما صنع بعروة، فقال: لست بفاعل حتى ترسلوا معي رجالاً، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك، فيكونون ستة، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب، وشرحبيل بن غيلان، ومن بني مالك عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونمير بن خراشة، فخرج بهم، فلما دنوا من المدينة، ونزلوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة، فاشتد ليبر رسول الله ﷺ بقدمهم عليه، فلقبه أبو بكر فقال: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه فعل، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدمهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه، فروح الظهر معهم، وأعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، فلما قدموا على رسول الله ﷺ، ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم، وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتبه، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد، حتى أسلموا.

بعث المغيرة وأبي  
سفيان لهدم اللات

وقد كان فيما سألو رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سأله شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يُظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرائعهم، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم. فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم بأيديكم، فسنُعفيكم منه، وأما الصلاة، فلا خير في دين لا صلاة فيه». فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص،

وكان من أحدثهم سناً، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم القرآن<sup>(١)</sup>.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجوا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف، أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك عليه أبو سفيان، فقال: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بماله بندي الهدم، فلما دخل المغيرة بن شعبة، علاها يضربها بالمعول، وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حُسرًا يبكين عليها، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالقأس -: «واهاً لك واهاً لك» فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها وحُلِيها، أرسل إلى أبي سفيان مجموعَ مالها من الذهب والفضة والجَزَع.

قدوم رجلين من ثقيف  
وقضاء الدين عنهما

وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف حين قُتِلَ عروة يريدان فراق ثقيف، وأن لا يُجامعاهم على شيء أبداً، فأسلما، فقال لهما رسول الله ﷺ: «تولّيا من شئتَما» قالوا: نتولّى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «وخالكمَا أبا سفيان بن حربٍ» فقالوا: وخالنا أبا سفيان.

فلما أسلم أهل الطائف، سأل أبو مليح رسول الله ﷺ أن يقضي عن أبيه عروة ديناً كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله ﷺ: نعم، فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقضيه - وعروة والأسود أخوان لأب وأم - فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَسْوَدَ مَاتَ مُشْرِكاً» فقال قارب بن الأسود: يا رسول الله! لكن تصل مسلماً ذا قرابة، يعني نفسه، وإنما الدين

(١) وهو الذي قال للنبي ﷺ: اجعلني إمام قومي، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت إمامهم، واقتد بأضعفهم، واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً» أخرجه أبو داود (٥٣١)، والنسائي ٢٣/٢، وأحمد ٢١٧/٤ وإسناده صحيح.

عليّ، وأنا الذي أُطَلِّبُ به، فأمر النبي ﷺ أبا سفيان أن يقضي دينَ عروة والأسود من مال الطاغية، ففعل.

وكان كتابُ رسول الله ﷺ الذي كتب لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عِصَاهُ وَجَّ وصيدَه حرام، لا يُعْضَد، من وَجَدَ يصنعُ شيئاً من ذلك، فإنه يُجلد، وتنزع ثيابه، فإن تعدّى ذلك، فإنه يؤخذ، فيبلغ به إلى النبي محمد، وإن هذا أمرُ النبي محمد رسول الله ﷺ».

فكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله<sup>(١)</sup>. فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها، سقناها كما هي، وإن تخلل بين غزوها وإسلامها غزاةُ تبوك وغيرها، لكن آثرنا أن لا نقطع قصتهم، وأن ينتظم أولُها بآخرها ليقع الكلام على فقه هذه القصة وأحكامها في موضع واحد.

فنقول: فيها من الفقه: جوازُ القتال في الأشهر الحرم، ونسخُ تحريم جواز القتال في الأشهر الحرم  
ذلك، فإن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة في أواخر شهر رمضان بعد مضي ثمان عشرة ليلة منه، والدليل عليه ما رواه أحمد في «مسنده» حدثنا إسماعيل عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن شداد بن أوس، أنه مر مع رسول الله ﷺ زَمَنَ الفتح على رجل يحتجُّم بالبقيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان، وهو آخذ بيدي، فقال: «أفطرَ الحَاجِمُ والمخجومُ»<sup>(٢)</sup>، وهذا أصح من قول من قال: إنه خرج لعشر خلون من

(١) انظر ابن هشام ٥٣٧/٢، ٥٤٣، والطبري ١٤٠/٣، وابن سيد الناس ٢٢٨/٢، وابن

كثير ٦٥٢/٣، ٦٦٦.

(٢) أخرجه أحمد ١٢٣/٤ و١٢٤ و١٢٥، وأبو داود (٢٣٦٨) و(٢٣٦٩) وسنده صحيح

وقد تقدم في الصيام.

رمضان، وهذا الإسناد على شرط مسلم، فقد روى به بعينه: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ  
الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»<sup>(١)</sup>.

وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصرُ الصلاة، ثم خرج إلى هوازن،  
فقاتلهم، وفرغ منهم، ثم قصد الطائف، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة في  
قول ابن إسحاق وثمان عشرة ليلة في قول ابن سعد، وأربعين ليلة في قول  
مكحول<sup>(٢)</sup>. فإذا تأملت ذلك، علمت أن بعض مدة الحصار في ذي القعدة،  
ولا بد، ولكن قد يُقال: لم يتبدىء القتال إلا في شوال، فلما شرع فيه، لم  
يقطعه للشهر الحرام، ولكن من أين لكم أنه ﷺ ابتدأ قتالاً في شهر حرام،  
وفرق بين الابتداء والاستدامة.

## فصل

ومنها: جوازُ غزوِ الرجل وأهله معه، فإن النبي ﷺ كان معه في هذه الغزوة  
أم سلمة وزينب.

ومنها: جوازُ نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل  
من لم يُقاتل من النساء والذرية.

ومنها: جوازُ قطع شجر الكُفار إذا كان ذلك يُضعفهم ويغيظهم، وهو أنكى  
فيهم.

ومنها: أن العبد إذا أبق من المشركين ولحق بالمسلمين، صار حراً. قال  
سعيد بن منصور: حدثنا يزيد بن هارون، عن الحجاج، عن مِقْسَم، عن ابن  
عباس، قال: كان رسولُ الله ﷺ يعتقُ العبيد إذا جاؤوا قَبْلَ مواليهم<sup>(٣)</sup>.

إذا أبق العبد من مشرك  
ولحق بالمسلمين صار  
حراً؟

وروى سعيد بن منصور أيضاً، قال: قضى رسولُ الله ﷺ في العبد وسيده

- (١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) في الصيد: باب الأمر بإحسان الذبح والقتل.
- (٢) وهو في قول أنس أيضاً رواه عنه مسلم في «صحيحه» وقد تقدم ص ٤٣٤.
- (٣) الحجاج: هو ابن أرقطة، وهو مدلس، وقد عنعن، وباقي رجاله ثقات.

قضيتين: قضى أن العبد إذا خرج من دار الحرب قبل سيده أنه حر، فإن خرج سيده بعده لم يُرد عليه، وقضى أن السيد إذا خرج قبل العبد، ثم خرج العبد، رُدَّ على سيده.

وعن الشعبي، عن رجل من ثقيف، قال: سألتنا رسول الله ﷺ أن يرُدَّ علينا أبا بكر، وكان عبداً لنا أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر ثقيفاً، فأسلم، فأبى أن يرُدَّهُ علينا، فقال: «هُوَ طَلِيقُ اللَّهِ، ثُمَّ طَلِيقُ رَسُولِهِ»<sup>(١)</sup> فلم يرده علينا.

قال ابن المنذر: وهذا قول كل من يُحفظ عنه من أهل العلم.

### فصل

ومنها: أن الإمام إذا حاصر حصناً، ولم يُفتح عليه، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه، لم يلزمه مصابرتُه، وجاز له ترك مصابرتِه، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها.

### فصل

ومنها: أنه أحرم من الجِعْرَانَةِ بعمرة، وكان داخلاً إلى مكة، وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجِعْرَانَةِ ليحرم منها بعمرة، ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أحدٌ من أصحابه البتة، ولا استحبه أحدٌ من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس، زعموا أنه اقتداء بالنبي ﷺ وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجِعْرَانَةِ ليحرم منها، فهذا لون، وسنته لون، وبالله التوفيق.

### فصل

استجابة دعائه ﷺ  
بإسلام ثقيف

ومنها: استجابة الله لرسوله ﷺ دعاءه لثقيف أن يهديهم، ويأتي بهم، وقد

(١) وأخرجه أحمد ١٦٨/٤ و٣١٠، ورجاله ثقات.

حاربوه وقتلوه، وقتلوا جماعةً من أصحابه، وقتلوا رسولَ رسولِه الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كُلُّه فدعا لهم، ولم يدع عليهم، وهذا من كمال رأفته، ورحمته، ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه.

## فصل

ومنها: كمالُ محبة الصديق له، وقصدُه التقربَ إليه، والتحبُّب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يُبشِّر النبي ﷺ بقدوم وفد الطائف، ليكون هو الذي بشَّره وفرَّحه بذلك، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثِّره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثِّر بها أخاه، وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب، لا يصح. وقد آثرت عائشةُ عمرَ بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي ﷺ، وسألها عمرُ ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل، وعلى هذا، فإذا سأل الرجل غيره أن يؤثِّره بمقامه في الصف الأول، لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل، ونظائره. ومن تأمل سيرة الصحابة، وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه: وهل هذا إلا كرمٌ وسخاء، وإيثارٌ على النفس بما هو أعظمُ محبوباتها تفريحاً لأخيه المسلم، وتعظيماً لقدره، وإجابة له إلى ما سألَه، وترغيباً له في الخير، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة، وأخذ أضعافها، وعلى هذا فلا يمنع أن يؤثِّر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتميم هو إذا كان لا بُد من تيمم أحدهما، فأثِّر أخاه، وحاز فضيلة الإيثار، وفضيلة الطهر بالتراب، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة. ولا مكارم أخلاق، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة، وعابنوا التلف ومع بعضهم ماء، فأثِّر على نفسه، واستسلم للموت، كان ذلك جائزاً، ولم يقل: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرماً، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم، وهل إهداء القرب المجمع عليها

كمال محبة الصديق  
له ﷺ

والمتنازع فيها إلى الميْتِ إلا إيثارُ بثوابها، وهو عين الإيثار بالقرب، فأبي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل، ثم يؤثره بثوابها، وبالله التوفيق.

## فصل

لا يجوز إبقاء مواضع  
الشرك بعد القدرة على  
هدمها

ومنها: أنه لا يجوزُ إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائرُ الكفر والشرك، وهي أعظمُ المنكرات، فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القدرة البتة، وهذا حكمُ المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تُقصد للتعظيم والتبرك، والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها، وبها، والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق، وتميت وتحيي، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعلهُ إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُدَّة بالقُدَّة، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العُلَماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

## فصل

جواز صرف الاموال التي  
في مواضع الشرك في  
مصالح المسلمين

ومنها: جواز صرف الاموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه

الطواغيت التي تُساق إليها كلها، ويصرفها على الجند والمقاتلة، ومصالح الإسلام، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات، وأعطاهما لأبي سفيان يتألفه بها، وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً، وله أن يقطعها للمقاتلة، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين، وكذلك الحكم في أوقافها، فإن وقفها، فالوقف عليها باطل، وهو مال ضائع، فيُصرف في مصالح المسلمين، فإن الوقف لا يصح إلا في قربة وطاعة لله ورسوله، فلا يصح الوقف على مشهد، ولا قبر يُسرج عليه ويُعظم، ويُندر له، ويحج إليه، ويُعبد من دون الله، ويتخذ وثناً من دونه، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام، ومن اتبع سبيلهم.

## فصل

ومنها: أن وادي وَّجَّ - وهو واد بالطائف - حرم يحرم صيده، وقطع شجره، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، والجمهور قالوا: ليس في البقاع حرم إلا مكة والمدينة، وأبو حنيفة خالفهم في حرم المدينة، وقال الشافعي - رحمه الله - في أحد قوليه: وَّجَّ حرم يحرم صيده وشجره، واحتج لهذا القول بحديثين أحدهما هذا الذي تقدم، والثاني: حديث عروة بن الزبير، عن أبيه الزبير، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ صَيْدَ وَّجَّ وَعِضَاهَهُ حَرَمٌ مُحَرَّمٌ لِلَّهِ» رواه الإمام أحمد وأبو داود<sup>(١)</sup>. وهذا الحديث يعرف بمحمد بن عبد الله بن إنسان عن أبيه عن عروة. قال البخاري في «تاريخه»: لا يتابع عليه.

وادي وَّجَّ حرم

قلت: وفي سماع عروة من أبيه نظر، وإن كان قد رآه والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (١٤١٦) وأبو داود (٢٠٣٢) وسنده ضعيف لضعف محمد بن عبد الله بن إنسان الطائفي، والعضاه من الشجر: ما لا شوك له، ويقال للواحدة منه: عِضَاهُ عَلَى وَزْنِ عِزِهِ، ويقال: عِضَهُ وَعِضَاهُ، كما قالوا: شفه وشفاه.

## فصل

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ودخلت سنة تسع، بعث المُصَدِّقِينَ بعث المصدقين لجنب الصدقات يأخذون الصدقات من الأعراب. قال ابن سعد: ثم بعث رسول الله ﷺ المُصَدِّقِينَ، قالوا: لما رأى رسول الله ﷺ هلال المحرم سنة تسع، بعث المُصَدِّقِينَ يصدقون العرب، فبعث عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنِ إلى بني تميم، وبعث يزيد بن الحُصَيْنِ إلى أسلم وغفار، وبعث عَبَّادَ بنِ بَشْرِ الأشهلي إلى سليم ومُزَيْنَةَ، وبعث رافع بن مكث إلى جُهَيْنَةَ، وبعث عمرو بن العاص إلى بني فَرَازَةَ، وبعث الضحاک بن سفيان إلى بني كلاب، وبعث بشر بن سفيان إلى بني كعب، وبعث ابن اللُثَيَّةِ الأزدي إلى بني ذبيان، وأمر رسول الله ﷺ المُصَدِّقِينَ أَنْ يَأْخُذُوا الْعَفْوَ منهم، ويتوقَّوا كرائم أموالهم<sup>(١)</sup>. قيل: ولما قدم ابن اللُثَيَّةِ حاسبه<sup>(٢)</sup>. وكان في هذا حجة على محاسبة العمال والأمناء، فإن ظهرت خيانتهم عزلهم، وولَّى أميناً.

قال ابن إسحاق: وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث عدي بن حاتم إلى طيء وبني أسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقات بني سعد على رجلين، فبعث الزبيرقان بن بدر على ناحية، وقيس بن عاصم على ناحية، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث علياً — رضوان الله

(١) ابن سعد ٢/١٦٠.

(٢) أخرج البخاري ١٣/١٤٤، ١٤٦، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللثبية على الصدقة، فلما قدم، قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا تعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بغيره له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت مرتين».

عليه - إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم<sup>(١)</sup>.

## فصل

### في السرايا والبعوث في سنة تسع

ذكر سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، وذلك في المحرم من هذه السنة، بعثه إليهم في سرية ليغزوهم في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء، وقد سرّحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولّوا، فأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيّاً، فساقهم إلى المدينة، فأنزّلوا في دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث، فلما رأوا نساءهم وذرائعهم، بكوا إليهم، فعجلوا، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، فخرج رسول الله ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وتعلّقوا برسول الله ﷺ يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى فصلى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فقدموا عطارد بن حاجب، فتكلم وخطب، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس، فأجابهم، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم، والله غفورٌ رحيمٌ﴾ [الحجرات: ٤، ٥]، فرد عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسبي، فقام الزبرقان شاعر بني تميم فأنشد مفاخرأ:

نحنن الكرام فلا حيّ يعادلنا      منّا الملوك، وفينا تنصب البيع  
وكم قسرنا من الأحياء كلهم      عند النهاب وفضل العزيتبع  
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا      من الشواء إذا لم يؤنس القزع<sup>(٢)</sup>

(١) ابن هشام ٢/٦٠٠.

(٢) القزع: السحاب الرقيق، يريد إذا لم تسطرهم السماء، وأجدبت أرضهم.

بِمَاتَرَى النَّاسَ تَأْتِنَا سَرَاتُهُمْ  
فَتَنَحَّرُ الْكُؤْمَ عُبْطًا فِي أَرْوَمَتِنَا  
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيِّ نَفَاخِرُهُمْ  
فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِي ذَلِكَ نَعْرِفُهُ  
إِنَّا أَبِينَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ  
مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا نَمُضِّعُ<sup>(١)</sup>  
لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أَنْزَلُوا شَيْعُوا<sup>(٢)</sup>  
إِلَّا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يُقْتَطَعُ  
فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ  
إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

فقام شاعر الإسلام حسان بن ثابت، فأجابه على البديهة:

إِنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فَهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ  
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ  
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ  
سَجِيَّةٌ تَلُكُ فِيهِمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ  
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ  
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ  
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمَ فَازَ سَبَقُهُمْ  
أَعْفَى ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عَفَّتُهُمْ  
لَا يَنْخَلُونَ عَلَيَّ جَارَ بَفْضِلِهِمْ  
إِذَا نَصَبْنَا الْحَيَّ لَمْ نَدِبْ لَهُمْ  
نَسَمُوا إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْنَا مَخَالِبُهَا  
قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ  
تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ مُضْطَمَعُ  
أَوْ حَاوَلُوا التَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا  
إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاغْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ  
فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَذْنَى سَبَقِهِمْ تَبَعُ  
عِنْدَ الدَّفْعِ وَلَا يُوهُونَ مَارَقَعُوا  
أَوْ وَزَانُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالْتَدَى مَتَعُوا<sup>(٣)</sup>  
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُزْدِيهِمُ الطَّمَعُ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا يَمْسُهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ<sup>(٥)</sup>  
كَمَا يَدِبُّ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الدُّرْعُ<sup>(٦)</sup>  
إِذَا الزَّرْعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا

(١) هويًا: سراعًا.

(٢) الكؤوم جمع كوما: وهي العظيمة السنام من النوق، وعبطًا، أي: من غير علة، وفي أرومتنا، أي: هذا الكرم مستأصل فينا.

(٣) متعوا: زادوا، يقال: متع النهار إذا ارتفعت شمسُه.

(٤) لا يطبعون: لا يتدنسون.

(٥) الطبع: الدنس.

(٦) نصبنا: أظهرنا العداوة ولم نسرهما، والذرع: ولد البقرة الوحشية.

لَا يَفْخَرُونَ إِذْ أَنْالُوا عَدُوَّهُمْ  
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتِ مُكْتَنِعٌ  
خُذْ مِنْهُمْ مَا اتَّوَعَفُوا إِذَا غَضِبُوا  
فَإِنَّ فِي حَرْبِهِمْ فِتْنَةً عَدَاوَتُهُمْ  
أَكْرِمَ بَقَاؤِ رَسُولِ اللَّهِ شَيْعَتُهُمْ  
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ  
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ  
وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا جَوْرٌ وَلَا هَلَعٌ  
أَسْدٌ بِحَلِيَةِ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعٌ (١)  
وَلَا يَكُنْ هُمُكَ الْأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا  
شَرَّ أَيْخَاضٍ عَلَيْهِ السُّمُّ وَالسَّلْعُ (٢)  
إِذَا تَفَاوَسَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ  
فِيمَا أَحَبَّ لِسَانَ حَائِكٍ صَنَعٌ  
إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمِعُوا (٣)

فلما فرغ حسان، قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لَمُوْتَى (٤) له،  
لخطيئه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من  
أصواتنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

## فصل

قال ابن إسحاق: فلما قدم وفد بني تميم، دخلوا المسجد، ونادوا  
رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا يا محمد، فأدى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم،  
فخرج إليهم، فقالوا: جئنا لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال: «نعم قد أذنتُ  
لخطيبكم فليقم»، فقام عطار بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً،  
الذي له الفضل علينا، والذي وهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا  
أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عُدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا رؤوس  
الناس، وأولي فضلهم، فمن فاخرنا، فليعدَّ مثل ما عدَدْنَا، فلو شئنا لأكثرنا من

رواية ابن إسحاق لوفد  
بني تميم

- (١) مكتنع: وان، وحلية: مأسدة باليمن، والأرساغ جمع رسخ، وهو موضع القيد من  
الرجل، وفدع: اعوجاج إلى ناحية.  
(٢) السلع: نبات مسموم.  
(٣) شمعوا: هزلوا، وأصل الشمع: الطرب واللهو، ومنه جارية شموع إذا كانت كثيرة  
الطرب.  
(٤) أي: موفق.

الكلام، ولكن نستحيي من الإكثار لما أعطانا، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا، ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قُمْ فَأَجِبْهُ»، فقام فقال: الحمد لله الذي السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمته نسباً، وأصدقته حديثاً، وأفضله حساباً، فأنزل عليه كتاباً، واثمنه على خلقه، وكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه ذوي رحمته، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وخير الناس فعلاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله، ووزراء رسول الله ﷺ، نُقاتِلُ الناسَ حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول هذا، وأستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

ثم ذكر قيام الزبرقان وإنشاده، وجواب حسان له بالأبيات المتقدمة، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم<sup>(١)</sup>.

## فصل

في ذكر سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم

وكانت في صفر سنة تسع. قال ابن سعد: قالوا: بعث رسول الله قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حيٍّ من خثعم بناحية تبالة، وأمره أن يشن الغارة، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فأخذوا رجلاً، فسألوه، فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضرة ويحذرهم، فضربوا عنقه، ثم أقاموا حتى نام الحاضرة،

(١) «سيرة ابن هشام» ٥٦٢/٢، ٥٦٧.

فَشَتُّوا عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً حَتَّى كَثُرَ الْجَرْحَى فِي الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً، وَقَتَلَ قُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ مِنْ قَتْلِ، وَسَاقُوا النَّعْمَ وَالنِّسَاءَ وَالشَّاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّهُ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ وَرَكَبُوا فِي آثَارِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ سَيْلاً عَظِماً حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَاقُوا النَّعْمَ وَالشَّاءَ وَالسَّبِيَّ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعْبُرُوا إِلَيْهِمْ حَتَّى غَابُوا عَنْهُمْ<sup>(١)</sup>.

## فصل

ذكر سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب

في ربيع الأول سنة تسع

قالوا: بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى بني كلاب، وعليهم الضحاك بن سفيان بن عوف الطائي، ومعه الأصبُدُّ بن سلمة، فلقوهم بالزُّجِّ زُجِّ لاوة، فدعَّوهم إلى الإسلام، فأبَّوا، فقاتلوهم، فهزموهم، فلحق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له في غدِيرِ الزُّجِّ، ندعاه إلى الإسلام، وأعطاه الأمان، فسبه وسبَّ دينه، فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه، فلما وقع الفرس على عرقوبيه، ارتكز سلمة على الرمح في الماء، ثم استمسك حتى جاء أحدُهم فقتله، ولم يقتله ابنه<sup>(٢)</sup>.

## فصل

ذكر سرية علقمة بن مجرز المدلجي إلى الحبشة

سنة تسع في شهر ربيع الآخر

قالوا: فلما بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة ترواهاهم أهلُ جدة، فبعث إليهم علقمة بن مُجَرِّزٍ في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر، فهربوا منه، فلما رجع تعجَّلَ بعض القوم إلى أهلهم، فأذن لهم، فتعجَّلَ

(١) «طبقات ابن سعد» ١٦٢/٢.

(٢) ابن سعد ١٦٢/٢، ١٦٣.

عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره على من تعجل، وكانت فيه دُعاة، فنزلوا ببعض الطريق، وأوقدوا ناراً يصطلون عليها، فقال: عزمتُ عليكم إلا توابتُم في هذه النار، فقام بعضُ القوم، فتجهَّزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا إنما كنتُ أضحكُ معكم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «مَنْ أَمَرَكُمْ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَطِيعُوهُ»<sup>(١)</sup>.

قلت: في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويُطيعوا، فأغضبوه، فقال: اجتمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، ثم قال: ألم يأمركم رسولُ الله ﷺ أن تسمعوا لي؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكأنوا كذلك حتى سكن غضبه، وطفت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا» وَقَالَ: لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>(٢)</sup>.

فهذا فيه أن الأمير كان من الأنصار، وأن رسول الله ﷺ هو الذي أمره، وأن الغضب حمله على ذلك.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٩٩]، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، بعثه رسول الله ﷺ في سرية<sup>(٣)</sup>، فإما أن

(١) أخرجه أحمد ٦٧/٣ وابن ماجه (٢٨٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري، وصححه ابن حبان (١٥٥٢) والحاكم ٦٣٠/٣، ٦٣١ وانظر طبقات ابن سعد ١٦٣/٢، وابن هشام ٦٤٠/٢، وشرح المواهب ٤٩/٣، ٥٠، والبخاري ٤٦/٧ في المغازي.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٩/١٣ في الأحكام: باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم (١٨٤٠) في الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية.

(٣) أخرجه أحمد (٣١٢٤) والبخاري ١٩١/٨ في التفسير: باب أطيعوا الله وأطيعوا =

يكونا واقعتين، أو يكون حديث عليّ هو المحفوظ والله أعلم.

## فصل

في ذكر سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه  
إلى صنم طيء ليهدمه في هذه السنة

قالوا: وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في مائة وخمسين رجلاً من الأنصار على مائة بعير، وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، لواء أبيض إلى الفلّس، وهو صنم طيء ليهدمه، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموه، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام، ووجدوا في خزانته ثلاثة أسياف، وثلاثة أدرع، فاستعمل على السبي أبو قتادة، وعلى الماشية والرّثة عبد الله بن عتيك، وقسم الغنائم في الطريق، وعزل الصفي لرسول الله ﷺ، ولم يقسم على آل حاتم حتى قدّم بهم المدينة<sup>(١)</sup>.

قصة عدي بن حاتم  
الطائي

قال ابن إسحاق: قال عدي بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشدّ كراهية لرسول الله ﷺ مني حين سمعتُ به ﷺ، وكنت امرأةً شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع، وكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي، فلما سمعتُ برسول الله ﷺ، كرهته، فقلت لِعِلام عربي كان لي، وكان راعياً لإبلي: لا أبالك اعدد لي من إبلي أجماً ذلاًّ سماناً فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعتُ بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأذني، فنعل، ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي: ما كنتَ صانعاً إذا غشيتك خيلُ محمد، فاصنعه الآن، فإني قد رأيتُ رايات، فسألت عنها فقالوا: هذه جيوشُ محمد قال: فقلت: فقرب إليّ أجمالي، فقربها، فاحتملتُ بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى

= الرسول، ومسلم (١٨٣٤) في الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

(١) ابن سعد ٢/١٦٤.

بالشام، وخلفتُ بنتاً لحاتم في الحاضرة، فلما قدمتُ الشام، أقمتُ بها،  
 وتحالفني خيلُ رسول الله ﷺ، ففتُصيبُ ابنة حاتم فيمن أصابت، ففُقدِمَ بها على  
 رسول الله ﷺ في سبايا من طيء، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام، فمرَّ  
 بها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، غاب الوafd، وانقطع الوالد، وأنا عجوز  
 كبيرة، ما بي من خدمة، فَمُنَّ عليَّ، مَنْ اللّهُ عليك، قال: «من وافدك؟» قالت:  
 عدئي بن حاتم. قال: «الذي فرَّ من الله ورسوله؟» قالت: فَمُنَّ عليَّ. قال: فلما  
 رجع ورجل إلى جنبه يرى أنه علي، قال: سليه الحملان، قالت: فسألته، فأمر  
 لها به. قال عدي: فأتيتني أختي، فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، اتته  
 راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان، فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه. قال عدي:  
 فأتيتُهُ وهو جالس في المسجد، فقال القومُ: هذا عدئي بن حاتم، وجئتُ بغير أمان  
 ولا كتاب، فلما دُفِعْتُ إليه، أخذ بيدي، وقد كان قبل ذلك قال: «إني أرجو أن  
 يجعل الله يده في يدي»، قال: فقام لي، فلقينته امرأة، ومعها صبي، فقالا: إن لنا  
 إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتهما، ثم أخذ بيدي حتى أتى داره،  
 فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها، وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى  
 عليه، ثم قال: «ما يُفِرُّكَ أُفِرُّكَ أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوى  
 الله؟» قال: قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة، ثم قال: «إنما تَفَرُّ أن يقال: الله أكبر،  
 وهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟» قال: قلت: لا. قال: «فإن اليهود مغضوبٌ عليهم،  
 وإن النصرى ضالون» قال: فقلت: إني حنيف مسلم. قال: فرأيتُ وجهه ينسبطُ  
 فرحاً. قال: ثم أمرني فأنزلتُ عند رجل من الأنصار، وجعلت أعشاه، أتته طرفي  
 النهار، قال: فبينما أنا عنده، إذ جاء قوم في ثياب من الصوف من هذه النمار،  
 قال: فصلى وقام، فحث عليهم، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْضَخُوا مِنَ الْفَضْلِ وَلَوْ  
 بِصَاعٍ، وَلَوْ بِنَصْفِ صَاعٍ، وَلَوْ بِقَبْضَةٍ، وَلَوْ بِبَعْضِ قَبْضَةٍ، يَقي أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ حَرَّ  
 جَهَنَّمَ أَوْ النَّارَ وَلَوْ بِتَمْرَةٍ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ  
 لَاقِي اللَّهِ، وَقَاتِلْ لَهُ مَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالاً وَوَلَدًا؟ فيقول: بلى،

فيقول: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وَبَعْدَهُ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ شَيْئًا يَاقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْفَاقَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ وَمُعْطِيكُمْ حَتَّى تَسِيرَ الظَّعِينَةُ مَا بَيْنَ يَثْرَبَ وَالْحَيْرَةَ، وَأَكْثَرُ مَا يَخَافُ عَلَى مَطْيَئِهَا الشَّرْقُ<sup>(١)</sup>، قَالَ:

(١) ابن هشام ٥٧٨/٢، ٥٨١، وأخرجه أحمد ٣٧٨/٤، والترمذي (٢٩٥٦) من حديث سماك بن حرب عن عباد بن حبيش عن عدي بن حاتم، وعباد بن حبيش وثقه ابن حبان وباقى رجاله ثقات، وأخرجه أحمد ٢٥٧/٤ أيضاً من حديث هشام بن حسان عن ابن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة عن رجل قال: قلت لعدي بن حاتم حديث بلغني عنك أحب أن أسمعك منك، قال: نعم، لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم — وفي رواية حتى قدمت على قيصر — فكهرت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه، قال: فقلت: والله لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذباً، لم يضرنى، وإن كان صادقاً علمت، قال: فقدمت، فأتيته، فلما قدمت، قال الناس عدي بن حاتم عدي بن حاتم، قال: فدخلت على رسول الله ﷺ، فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم» ثلاثاً، قال: قلت: إني على دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك»، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت: بلى، قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك»، قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، فقال: «أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده ليرتم الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها، ثم قال أحمد ٣٧٩/٤: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة عن رجل، قال حماد وهشام: عن محمد عن أبي عبيدة ولم يذكر عن رجل قال: كنت أسأل الناس عن حديث عدي بن حاتم وهو إلى جنبي ولا أسأله، قال: فأتيته فسألته، فقال: نعم، فذكر الحديث... وأخرج البخاري في «صحيحه» ٤٥٠/٦ في المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر، فشكا إليه قطع =

فجعلتُ أقول في نفسي: فأين لصوص طيبة.

## فصل

### ذكر قصة كعب بن زهير مع النبي ﷺ

وكانت فيما بين رجوعه من الطائف، وغزوة تبوك.

قال ابن إسحاق<sup>(١)</sup>: ولما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، كتب بُجير بن زهير إلى أخيه كعب يُخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوهم ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبَيْرِ، وهُبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كلِّ وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً مسلماً، وإن أنت لم تفعل، فانج إلى نجاتك، وكان كعب قد قال:

أَلَا أَبْلَغَ عَنِّي بُجَيْرَ رِسَالَةٍ      فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ وَيَحْكُ هَلْ لَكَ  
فَبَيْنَ لَنَا إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِفَاعِلٍ      عَلَى أَيِّ شَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ دَلَّكَ

السيبل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد أثبتت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، — قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَار (جمع داعر وهو الشاطر الخيث المفسد) طيء الذين قد سعروا البلاد — ولئن طالت بك حياة، لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً، فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه، فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «أتقوا النار ولو بشق تمره، فمن لم يجد شق تمره، فبكلمة طيبة». قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ «يخرج ملء كفه».

(١) ابن هشام ٢/٥٠١، ٥١٥.

عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْفِ أُمًّا وَلَا أَبًا      عَلَيْهِ وَلَمْ تُذَكِّرْ عَلَيْهِ أَحَا لَكَ  
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِأَسْفٍ      وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَشَرْتَ لَعَا لَكَ (١)  
سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأَسَا رَوِيَّةً      فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَاكَ (٢)

قال: وبعث بها إلى بُجَيْر، فلما أنت بُجَيْراً، كره أن يكتبها رسول الله ﷺ،  
فأنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ: «سَقَاكَ الْمَأْمُونُ، صَدَقَ وَإِنَّهُ لَكَذُوبٌ، أَنَا  
الْمَأْمُونُ، ولما سمع «على خلق لم تلف، أما ولا أبا عليه»، فقال: أجل. قال: لم  
يلف عليه أباه ولا أمه، ثم قال بجير لكعب:

مَنْ مُنْبِغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي النَّبِيِّ      تَلُومٌ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ  
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحَدَهُ      فَتَنْجُو إِذَا كَانَ التَّجَاءُ وَتَسْلَمُ  
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُقْلَبٍ      مِنَ النَّاسِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ  
فَدَيْنٌ زُهَيْرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ      وَدَيْنٌ أَبِي سُلَيْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعباً الكتاب، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به  
من كان في حاضره من عدوه، فقال: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بُدَأ، قال  
قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه،  
ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهينة، كما  
ذُكر لي، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صَلَّى الصُّبْح، فصلى مع رسول الله ﷺ،  
ثم أشار إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمنه، فذُكر لي  
أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان  
رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك  
تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتُك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قال:  
أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

- (١) لعاً لك: كلمة تقال للعاثر، وهي دعاء له للإقالة من عثرته.  
(٢) كأساً رويّة، أي مروية: والنَّهْل: الشرب الأول، والعلل: الشرب الثاني، والمأمون:  
يعني النبي ﷺ كانت قريش تسميه به.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فقد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه» قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال قصيدته اللامية التي يصف فيها محبوبته وناقته التي أولها:

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ      مَتِيمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ<sup>(١)</sup>  
يَسْعَى الْغَوَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمْ      إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ<sup>(٢)</sup>  
وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْلُهُ      لَا أَلْهَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ<sup>(٣)</sup>  
فَقُلْتُ خَلُوطَ طَرِيقِي لِأَبَائِكُمْ      فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ<sup>(٤)</sup>  
كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ      يَوْمًا عَلَى آلَةِ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ<sup>(٥)</sup>  
نُبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي      وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ<sup>(٦)</sup>  
مَهْلَاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ      قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ<sup>(٥)</sup>  
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ السُّوْشَاةِ وَلَمْ      أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ<sup>(٦)</sup>  
لَقَدْ أَقْبُومُ مَقَامًا لَوْ يُقْبُومُ بِهِ      أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ<sup>(٦)</sup>  
لَظَلَّ تُرْعَدُ مِنْ خَوْفِ بَوَادِرُهُ      إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْوِيلُ<sup>(٦)</sup>

(١) متبول: أسقمه الحب أضناه، ومتيم: ذليل مستعبد، ولم يفد: لم يخلص من الأسر، ومكبول: مقيد.

(٢) الغواة: المفسدون. جنابها: حوايلها. ومقتول: متوعد بالقتل.

(٣) أملة: أومل خيره، وأترجى إعانته في الملمات، وألهيتك: أشغلتك، و«لا» فيها نافية، والتوكيد قليل مع النفي.

(٤) الآلة الحدباء: النعش الذي يحمل عليه الميت.

(٥) النافلة: الزيادة. وسمي القرآن نافلة، لأنه عطية زائدة على النبوة.

(٦) التنويل: التأمين.

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زِعْهَا  
فَلَهُوَ أَخَوْفٌ عِنْدِي إِذَا أَكَلْتُمَهُ  
مِنْ ضَيْغَمٍ بِضَرَاءِ الْأَرْضِ مُخَدَّرُهُ  
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْعَامَيْنِ عَيْشُهُمَا  
إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَآلَا يَحِلُّ لَهُ  
مِنْهُ تَنْظَلُ سَبَاعُ الْجَوْنَ نَافِرَةٌ  
وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخْوَثَقَةٌ  
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ  
فِي عُضْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ  
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ

فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ الْقَيْلُ<sup>(١)</sup>  
وقيل إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْؤُولُ<sup>(٢)</sup>  
فِي بَطْنِ عَثْرَ غَيْلٍ دُونَهُ غَيْلُ<sup>(٣)</sup>  
لَحْمٍ مِنَ النَّاسِ، مَعْفُورٌ خِرَادِيْلُ<sup>(٤)</sup>  
أَنْ يَتْرَكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُوبٌ<sup>(٥)</sup>  
وَلَا تَمَشَى بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ<sup>(٦)</sup>  
مَضْرَجُ الْبَزِّ وَالذَّرْسَانُ مَا أُكُولُ<sup>(٧)</sup>  
مُهْتَدٍ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوبٌ  
بِطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زَوْلُوا<sup>(٨)</sup>  
عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مَيْلٌ مَعَازِيلُ<sup>(٩)</sup>

- (١) النقمات: بفتح فكسر، جمع نِقْمَة، والمراد به النبي ﷺ لأنه كان يتقّم من الكفار، وقوله القيل: المراد أن قوله معتد به لكونه نافذاً ماضياً.
- (٢) منسوب: أي إلى أمور صدرت منك، ومسؤول، أي: عن سببها.
- (٣) الضيغم: الأسد. وضراء الأرض: الأرض التي فيها شجر. والمخدر: غابة الأسد، وعثر: مكان مشهور بكثرة السباع. والغيل: الشجر الكثير الملتف. وغيل دونه غيل: أي أجمه تقربها أجمه أخرى، فتكون أسدها أشد توحشاً وأقوى ضراوة.
- (٤) يغدو: يخرج في أول النهار يتطلب صيداً لشبليه. ويُلحِم: يطعمها اللحم.
- (٥) والضرغام: الأسد، معفور: ملقى في العفر وهو التراب، وخراديل: قطع صغار.
- (٦) يساور: يواكب، القرن: المقاوم في الشجاعة، والمفلول: المكسور المهزوم.
- (٧) الجو: اسم موضع. ونافرة بعيدة، والأراجيل: الجماعات من الرجال وهو جمع الجمع.
- (٨) البز: السلاح، الدرسان: أخلاق الثياب. ومأكول، أي طعام لذلك الأسد.
- (٩) زولوا: فعل أمر من زال التامة، أي تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة.
- (٩) الأنكاس: جمع نكس، وهو الرجل الضعيف، والكشف بضم فسكون وحرك للوزن جمع أكشف، وهو الذي لا ترس معه، أو هم الشجعان الذين لا ينهزمون في الحرب. والميل جمع أميل، وهو الذي لا سيف له أو هو الذي لا يحسن الركوب فيميل عن السرج، والمعازيل: الذين لا سلاح معهم، واحدهم: معزال.

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ  
شُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لَبْسُهُمْ  
بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ  
كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولٌ<sup>(٣)</sup>  
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ تَأَلَّتْ رِمَاحُهُمْ  
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ  
ضَرَبٌ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ<sup>(١)</sup>  
مَنْ نَسَجَ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ<sup>(٢)</sup>  
قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَانِيلُوا  
وَمَا لَهُمْ عَن حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ<sup>(٤)</sup>

قال ابن إسحاق: قال عاصم بن عمر بن قتادة: فلما قال كعب: «إذا عرد السود التنابيل» وإنما عنى معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع، وخص المهاجرين بمدحته، غضبت عليه الأنصار، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار في قصيدته التي يقول فيها:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ  
فِي مَقْتَبِ مَنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ<sup>(٥)</sup>  
وَرَبُّوا الْمَكَارِمَ كَسَابِرًا عَن كَابِرِ  
إِنَّ الْخِيَارَ هُمْ بَنُوسُ الْأَخْيَارِ

- (١) الزُّهْرُ: البيض، يصفهم بامتداد القامة وعظم الخلق والرفق في المشي وبياض البشرة، وذلك دليل على الوقار والسؤدد. ويعصمهم: يمنعهم. وعرد: فرّ، وأعرض عن قرنه وهرب عنه، والتنابيل: جمع تنبال، وهو القصير.
- (٢) شم، جمع أشم: وهو الذي في قصبة أنفه علو مع استواء أعلاه، والعرايين: جمع عرين، وهو الأنف، وصفحهم بهذا الوصف إما على الحقيقة، لأن ارتفاع الأنف من الصفات المحمودة في خلق الإنسان، وإما على المجاز، يريد ارتفاع أقدارهم، وعلو شأنهم، واللبوس: ما يلبس من السلاح، ونسج داود: هي الدروع. والسراويل: جمع سربال، وهو القميص أو الدرع. ووصفها بأنها من نسج داود دليل على مناعتها.
- (٣) بيض: مجلوة صافية مصقولة. السوابغ: الطوال. وشكَّت: أدخل بعضها في بعض، والقفعاء: ضرب من الحسك، وهو نبات له شوك ينسبط على وجه الأرض تشبه به حلق الدروع. ومجدول: محكم الصنعة.
- (٤) وقوع الطعن في نحورهم: دليل على أنهم لا ينهزمون حتى يقع الطعن في ظهورهم، وحياض الموت: موارد الحتف، يريد بها ساحات القتال، وتهليل: تأخر.
- (٥) المقتب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جيادهم.

الْبَاذِلِينَ نَفْسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ  
 وَالذَّائِدِينَ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ  
 وَالْبَائِعِينَ نَفْسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ  
 يَتَطَهَّرُونَ يَرَوْنَهُ سُكَّالَهُمْ  
 وَإِذَا حَلَلْتُمْ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمْ  
 قَوْمٌ إِذَا خَوَّتِ النَّجُومُ فَإِنَّهُمْ

وكعب بن زهير من فحول الشعراء، هو وأبوه، وابنه عقبة، وابن ابنه  
 العوام بن عقبة، ومما يستحسن لكعب قوله:

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي سَعْيُ الْفَتَى وَهُوَ مَحْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ  
 يَسْعَى الْفَتَى لَأُمُورٍ لَيْسَ يُذَرُّهَا فَالْنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مُتَشِيرٌ  
 وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ لَا تَنْتَهِي الْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَكْرُ

ومما يستحسن له أيضاً قوله في النبي ﷺ:

تُحْدِي بِهِ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءَ مُعْتَجِرًا لِلْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جُلِّي لَيْلَةَ الظُّلَمِ  
 فَفِي عَطَافِيهِ أَوْ أَتْنَاءِ بُرْدَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

## فصل

### في غزوة تبوك<sup>(٤)</sup>

وكانت في شهر رجب سنة تسع، قال ابن إسحاق: وكانت في زمن عُسْرَةٍ

- (١) الخطار: المهتر.
- (٢) المعائل: جمع معقل، وهو الموضع الممتنع، والأعفار، جمع عَفْر وهو ولد الوعل، ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعول في قلال الجبال.
- (٣) خوت النجوم: أي سقطت، ولم تملط في نوتها، والطارقون الذين يأتون بالليل، والمقاري: جمع مقراة، وهي الجفنة التي يصنع فيها الطعام للأضياف.
- (٤) انظر ابن هشام ٥١٥/٢، ٥٣٧، وابن سعد ١٦٥/٢، ١٦٨، والطبري ١٤٢/٣، وابن سيد الناس ٢١٥/٢، وابن كثير ٣/٤، ٦٨، و«شرح المواهب» ٦٢/٣، ٨٩.